مظاهر مقاومة سياسة الفرنسة و الحفاظ على اللغة العربية مع بداية الاحتلال

نموذجي : حمدان خوجة و أحمد باي .

د. سعيد بوخاوش

جامعة البليدة 2

ملخص :

تتناول هذه المداخلة بعض مظاهر مقاومة سياسة الفرنسة و الحفاظ على اللغة العربية مع بداية الاحتلال الفرنسي للجزائر ، فقد قام الفرنسيون بجرائم ثقافية أرادت محو أصول الشعب الجزائري و اقتلاعه من جذوره، على غرار ما فعل الاستطان الأوروبي في أمريكا ، لكن هذا الشعب بأطيافه المختلفة سجل عبقريته و صلابته وقوة انتمائه الحضاري منذ البداية إلى غاية الاستقال بانه شعب غير قابل للذوبان ، و قد تناولت هذه المداخلة نموذجين ، مقاومة الوسط (التيار العربي) و قد مثلت بحمدان بن عثمان خوجة ، و مقاومة الشرق ممثلة في التيار العثماني ممثلة في : أحمد باي .

1 . المقاومة الثقافية في بايلك الوسط في بداية الاحتلال والحفاظ على اللغة العربية :

1.1 المطالبة باحترام الدين الإسلامي و اللغة العربية في معاهدة 05 جويلية:

إن مقاومة الجزائريين كانت من البداية ، وكانت عسكرية بالدرجة الأولى ، وهدف الحروب واحد لا يتغير ألا وهو التغلب على الخصم لإجباره على قبول وضع معين لم يكن يرضى به قبل الحرب ، وهذا ما حدث في الجزائر إذ أن قائد الحملة الفرنسية " الكونت ديبورمون " بعد أن تغلب على الخصم وهو الطرف

الجزائري ، فرض على السلطات الجزائرية ممثلة بالسيد " الداي حسين " إبرام اتفاق استسلام الجزائر وسقوط الجزائر العاصمة [1] ، وكان التركيز على الدين واللغة واضحا في نص الاتفاق[2] وهذا ما وضحه سعد الله في كتابه [3].

2-1 - ظهور التيار العربي الإسلامي ومجابهته لسياسة الفرنسة :

لقد ظهر التيار العربي الإسلامي في الجزائر بين 1830 و1837 " تيار كان أسبق بعدة عقود من ظهوره في المشرق على يد أنصار الجمعيات السرية العربية المضادة في أساسها لسياسة التتريك العثمانية ، ولكن طغيان قادة الاحتلال والظلم الاستعماري الفرنسي حول ذلك التيار العربي الإسلامي في الجزائر إلى قوة معادية بشدة للفرنسيين أكثر من الأتراك . بالعكس فإن ظلم الفرنسيين قد أنسى الجزائريين مع مرور الزمن ظلم الأتراك"[4].

ينقسم تاريخ المقاومة الجزائرية إلى فترات عدة من عام 1830 .1870 ، ومن عام 1870 إلى 1919 ومن عام 1919 إلى 1954 ومن عام 1954 إلى 1962 .

لقد تميزت الفترة الأولى بخوض الأرياف الجزائرية حربا طويلة بعد هجرة النخب الجزائرية إلى خارج الجزائر ابتداء من عام 1830 ، لكن بقي العديد ممن لهم نفوذ في الجزائر يحاولون الحفاظ على مكتسباتهم في العهد العثماني ، فبعد فشل السياسة المركزية ، و انهزامها عسكريا ثم استسلامها ، ظهر تيار جزائري خالص ، اغتر في البداية بوعود الفرنسيين حيث تبين للفرنسيين بعد مخاطبة الجزائريين (الأعيان ، العلماء ، الفقهاء ، التجار ...) أن هناك علاقات سيئة بين الراعي والرعية ولهذا " وعد الفرنسيون بأنهم سيحررون الجزائريين من رقبة النير التركي .. ولكن ترحيب بعض المثقفين الجزائريين ورجال الحضر بكلمة الفرنسيين يدل على عدائهم القوي للعثمانيين الأتراك ، وعلى آمالهم في الحصول على الحرية والاستقلال منهم بمساعدة الفرنسيين "[5].

وهكذا ظهر هذا التيار الوطني في كل مدينة من مدن الجزائر تقريبا (الجزائر ، تلمسان ، المدية ، قسنطينة ...) وقد سماه سعد الله .رحمه الله. بالحزب العربي تجاوزا " وإن هناك علامات قوية لظهور تيار عربي إسلامي في الجزائر بين 1830 . 1837 ، تيار كان أسبق بعدة عقود من ظهوره في المشرق على يد أنصار الجمعيات السرية العربية " [6].

يتبين لنا إذن أن الدفاع عن الهوية العربية الإسلامية بدأت مع الاحتلال مباشرة فقد ظهرت شخصيات عديدة سلكت المسلك السياسي في البداية بعد عجزها عسكريا ثم سرعان ما تبنت نهج المقاومة الشعبية العسكرية تحت مفهوم الجهاد ، ومن أبرز المعبرين عن ذلك التيار العربي الإسلامي أعضاء لجنة بلدية الجزائر ، وبعض الطرق الصوفية والمقاومة الشعبية ، ولاسيما في الغرب (قيادة الأمير).

" فلجنة البلدية المذكورة كانت تتكون من الحضر. العرب. ، وكان رئيسها هو أحمد بوضربة الذي تزعم هذا التيار منذ (1830 . 1831) ، وهو جزائري من أصل أندلسي كان أهله في القديم يسكنون المدية ، وقد آمن في بداية الأمر أن كلمة الفرنسيين في التحرير صادقة فارتبط بهم وخدمهم، خصوصا أنه يعرف الفرنسية وزوجته منهم ... وقد تبين فيما بعد أنه كان مخطئا " [7].

ويذكر الأستاذ عبد الرحمان الجيلالي في كتابه تاريخ الجزائر العام في نفس السياق أنه لم يكن لأهل الجزائر أن يفقدوا الثقة بأنفسهم ، أو أن يصبروا على الذل والهوان الذي لحق بهم بسبب اندحار السلطة المركزية في الميدان الحربي ، كما أنه ليس لهم أن يتحملوا انتهاك حرمة ذاتية بلادهم، الواقعة بيد أجنبية عنهم في كل شيء، تعمل على القضاء على الشخصية الجزائرية ، منهمكة في محو تاريخها وهويتها والعبث بشعائر دينها وتقاليدها ، وجميع مقومات حياتها

المتوارثة عن آبائها وأسلافها الأمجاد"[8] ، ولاسيما أن اللغة العربية من أخص خصائص هوية هذا الشعب ، ولهذا غدا يومئذ يعمل على معارضة الاحتلال ومقاومته بطرق دبلوماسية داخل البلاد وخارجها ، وكان فيما استعملوه من أساليب للدفاع عن الوطن في هذه المرحلة أن أسسوا بالعاصمة هيئة سياسية تحت اسم " لجنة المغاربة" كان يرأسها حمدان خوجة ، وكان من بين أعضائها : ابن عمر ، وإسماعيل بن مصطفى ، وحمدان آغا وأحمد بوضربة ، ولم يمض إلا قليل على زمن الاحتلال ، بل في السنة نفسها حتى بعثت هذه اللجنة بمن يمثلها لدى السلطات العليا بباريس ليطلع الحكومة هناك بحال التصرفات التعسفية التي كان يرتكبها الغزاة الفرنسيون ضد الأهالي بالجزائر ، تلك التصرفات التي كان من ضمنها ما ذكره المؤرخ الفرنسي بوديكور فقال : " أن جنودنا كانوا خجلين من أنفسهم عند عودتهم من الحملة "[9] .

3-1 . حمدان بن عثمان خوجة[10] ومجابهته لسياسة الفرنسة (المرآة) :

لقد قام أعيان الجزائر بعدة مبادرات سياسية تطلب الحفاظ على مقومات الشعب الجزائري لاسيما الدين الإسلامي و اللغة العربية . " ففي آخر سنة 1830م أوفدت اللجنة أحد أعيان الجزائر و هو أحمد بوضربة إلى باريس لشرح القضية أمام الدوائر العليا المسؤولة هناك، وكتب في ذلك رئيس اللجنة حمدان بن عثمان خوجة رسالة (10 جويلية 1833 م) إلى ملك فرنسا لويس فيليب ملتمسا منه التدخل في القضية الجزائرية شخصيا ، وكان مما ذكره فيها أنه قال : " إن للجزائريين الحق كما لغيرهم من الأمم الحرة المستقلة في التمتع بالحرية التامة وغيرها ..." ، وقد كتب حمدان خوجة كتاب " المرآة" وفيه عرض شامل لحالة الجزائر ، وبيان وضعيتها الاجتماعية والسياسية قبل الاحتلال وبعده ، مع بيان رغبات الشعب ومطالبه ، وكذلك وصف الحياة الاجتماعية

والاقتصادية والسياسية للجزائريين ، وقد قام بتحقيقه الدكتور العربي الزبيري ، كما كتب مذكرة أخرى بتاريخ 26 أكتوبر 1833 ، ومما جاء فيها : " إن حاجزا لا يمكن اجتيازه قد أقيم في الجزائر بين الشعبين اللذين لا يمكن أن يتكلما نفس اللغة ولا يعتنقا نفس الدين ، ولا يلبسا نفس الثياب ، ولا يمارسا نفس طريقة الحياة ... " [11] .

فحمدان بن عثمان خوجة يبين منذ البداية أن هذا الشعب مختلف تماما عن الأوروبين في دينه ولسانه و تقاليده ، وإن زرع كائن جديد خليط من الأوروبيين لا يمكن أن يتم ، و لا يأتي إلا بحروب تجر الخراب على الجزائر .. إن الشعبين الجزائري و الفرنسي – كما قال –لا يمكن أن يتكلما نفس اللغة .

لقد استمر هذا الاتجاه العربي يعمل في موقف صارم على معارضة الاحتلال بأساليب ديبلوماسية مختلفة " حيث عدموا الإمكانات العسكرية والحربية ، وهكذا إلى أن اضطهدتهم السلطة المحتلة وحوكموا جميعا كمجرمين ، فحكمت عليهم المحكمة العسكرية بالإبعاد عن الوطن، رغم ذلك لم يمنعهم الإبعاد عن وطنهم من الاستمرار في مواصلة النضال ومقاومة المستعمر وهم في عقر داره بباريس ، وبإسطنبول وبتونس والمغرب ..."[12] .

إن الدارس لآثار حمدان خوجة يجد أن كتاب المرآة يمثل صورة صادقة للواقع غداة الاحتلال " فيعتبر كتابه المرآة علامة مضيئة في الفكر الجزائري ، وشهادة حية عن شراسة صليبية وحقد استعماري ، عكست طموح الشرفاء الجزائريين الأباة إلى العزة والكرامة رفضا لكل أشكال الهيمنة و الاحتلال . وكما عبر الكتاب عن روح شخصية فكرية جزائرية فذة ، عبر بوضوح عما لحق الجزائر من أذى وويلات استعمارية مثلما عبر عن الحس الوطني والقومي بعمقه الديني الذي بقيت تعوزه كثير من عناصر القوة لقهر الأعداء . وعناصر الوحدة الشاملة

للوقوف في وجه عمليات التفتيت و المسخ و الاضطهاد و الاذلال ، بعد عمليات الحرق و الإبادة و المصادرة و الاستحواذ على الأرض وعلى كل ما عليها ومن عليها" [13] .

ومن هذا يمكن القول أن حمدان خوجة من المقاومين المفكرين الذين عبروا عن بدايات الاحتلال كشاهد عيان عايش المحنة ، وفي هذا يقول الدكتور بن قينة : " لذا يبقى كتاب " المرآة " أهم كتاب لهذا المفكر الجزائري ، ذي الحس الوطني الفياض ، و الرؤى القومية المتوثبة بكل العمق الحضاري لهذا الانتماء القومي : العروبة و الإسلام ، وقد صور إحساسه بما انتهى إليه الوضع في وطنه العربي المسلم تصويرا دقيقا في معظم الفصول ، و الأسى يمزق قلبه ، كما عبر في المرآة عن ذلك بوضوح في مثل قوله : " إنه لمن الصعب علي جدا أن أرى في الجزائر ناحية آمنة يطمئن فيها أبناء وطني ... إنني أبصر سكانها التعساء يئنون تحت نير الظلم و الإبادة و شتى كوارث الحرب ... إن قضية الجزائر الخطيرة جدا ، لأنها تتعلق بمصير أمة بكاملها ... إن تعاسة وطني قد تسببت في قلقي المستمر ، وكثيرا ماكنت أثناء تحبيري لهذه التعاسة (في المرآة) مكرها عن إيقاف قلمي لأترك دموعي تسيل " [14] .

هكذا حبر حمدان خوجة كتابه المرآة الذي ضم ثلاثة أبواب ، وفي كل باب عدة فصول ، تحدث فيه عن جوانب مختلفة من تاريخ الجزائر ، وسياستها و ثقافتها ، وعاداتها ، مركزا على الجرائم الاستعمارية للفرنسيين في الجزائر حين يذكر في عدة مواطن أن المحتلين " قد احتفظوا بأهوائهم الخسيسة و شهواتهم الدنيئة التي قد ورثوها عن أسلافهم " رغبة منه في إثارة الجزائريين للصمود و الجهاد ورد الباغيب الأثيم ، ومحاولا إقناع المحتلين بالجلاء عن الجزائر ، لأن شعبها غير قابل للاستعمار .

ويذكر الدكتور عمر بن قينة أيضا إلى جانب كتاب المرآة كتاب " اتحاف المنصفين و الأدباء في الحتراس من الوباء " وقد عكس هذا الكتاب أيضا مواهبه السياسية و الفكرية و الأدبية ، كما عكس ثقافته الدينية والقانونية و الطبية و خبرته أيضا بالحياة و شؤونها و شجونها ، خاصة بفضل أسفاره المختلفة خارج الجزائر قبل الاحتلال الفرنسي ، ومقاومته الفكرية السياسية هذا الاحتلال ، بعد أن جثم على الوطن كابوسا مزمنا " [15]

4-1. **العرائض في بداية الاحتلال ومحاربة سياسة الفرنسة :**

لقد وجه أعيان الجزائر ومن بينهم عثمان خوجة ، عدة شكاوي ومراسلات وعرائض للعسكريين الفرنسيين غداة الاحتلال بعد تصدع المقاومة المسلحة واستسلام الحكم المركزي المتمثل في حسن باشا وأعضاء المعاهدة .

وهناك عدة عرائض في الأرشيف الفرنسي ، ويمكن أن نمثل بواحدة من هذه العرائض لنبين موضوعها وأسلوبها وكيفية عرض الجزائريين مطالبهم .

لقد ذكرت سابقا أن المرحلة الأولى من الاحتلال الفرنسي للجزائر " تميزت بالمقاومة المسلحة والمقاومة السياسية ، وقد تولى المقاومة المسلحة لهذه الفترة زعماء معروفون وآخرون غير معروفين، حيث هناك أشخاص قاوموا وهم مجهولون ، وقد كانوا ينبهون الناس ويؤلفون اللجان ، ويكتبون في الصحف ويراسلون بعضهم البعض من أجل تنظيم المقاومة وتخطيطها ، لأن الاحتلال الفرنسي في الجزائر قد محا جميع معالم الدولة الجزائرية ، وحكم البلاد حكما مباشرا ، حيث لا يوجد من يتكلم باسم الأهالي لا في شكل حكومة أو في شكل حزب أو هيئات محلية ولا توجد واسطة بين السلطات الفرنسية وسكان الجزائر فهو إذن أبشع نوع من أنواع الاستعمار الأوروبي الحديث الذي عرفته المعمورة حتى اليوم " [16] . لقد كتب الدكتور إبراهيم مياسي .رحمه الله .في كتابه

مقاربات في تاريخ الجزائر (1830 . 1962) دراسة توثيقية أرشيفية من الأرشيف الوطني الفرنسي، وهي من المجموعات للرصيد الأرشيفي الجزائري ومصدرها هو أرشيف ما وراء البحار ب آكس برفانس ، ويرمز إليه (A.O.M) وهي تحت رقم E.15 وهي عبارة عن عريضة أو لائحة تقدم بها بعض أعيان الجزائر إلى القائد العسكري حاكم الجزائر آنذاك بتاريخ 13 ربيع الأول 1247هـ الموافق ل 27 أوت 1831م .

و ما يهمني في هذه العريضة هو طريقة كتابتها و لغتها ، إذ أن ما يتعلق بالسياسة القمعية الفرنسية، أمر شهد به الفرنسيون أنفسهم ، و لكن الوثيقة تبين حجم الأوقاف التي قضى عليها جنرالات فرنسا . و فكرتها الأساسية تكمن في مطالبة هؤلاء الأعيان في استرداد ما اغتصبه المحتل الفرنسي من مساجد وأوقاف و منازل و عقارات .. و طالبوا بتكوين لجنة للتعويضات ، كما تثير اللائحة قضية كيفية سقوط الداي ، و انقسام أعيان الجزائر إلى مؤيد للإحتلال و محارب له ، كما تبين الوثيقة تدهور النضج السياسي لهؤلاء الأعيان و فهمهم الخاطئ للأحداث و الوقائع الخطيرة ، و تبين وسائلهم الهزيلة في الدفاع عن ممتلكاتهم عكس المقاومة الحقيقية التي وقفت ضد المستعمر "[17] ، و لا شك أن هذا التدهور في الوعي صاحبه أيضا تدهورا في الكتابة و لنمثل بهذا المقطع من اللائحة " .. **و اليوم أول مطلوبنا منكم ، أن تردلنا حبوس مكة و المدينة و جميع حبوسنا لأنه أنتم أعطيتمونا الآمان في أمور ديننا ن وهذا الحبوس الذي أخذتموه لنا من غير حق نطلب من فضلكم الرفيع أن تردوا لنا ذلك باش نقوموا بالفقراء و المساكين ، و مصروف الجوامع و السبيطار و الكليل سالي ضايعين و باش نقوموا بالملاك الي مهدومين امتاع مكة والمدينة و غيرهم من مصالح البلاد** " ، فنلاحظ استخدام العامية في هذه

اللائحة ، و الوثيقة تبين أن لغة الجزائريين كانت عربية واضحة في التداول ، فإذا كانت هذه اللغة كتبت بهذا المستوى التداولي فهذا يعني أن الفرنسيين لم يقدموا شيئا للعربية منذ احتلالهم للجزائر .

2 . مظاهر المقاومة لسياسة الفرنسة في الشرق الجزائري "أحمد باي نموذجا"

2-1. رفض الشرق الجزائري للاحتلال (سقوط الحكم المركزي العثماني وانتقاله إلى قسنطينة) :

إن المقاومة في الإقليم الشرقي عرفت نفس منحى المقاومة في الوسط والغرب فقد سقط الحكم المركزي بقيادة الداي حسين ، و مهدت الظروف في الشرق الجزائري ، السياسية والعسكرية لقيام مقاومة أحمد باي ، لقد كانت المقاومة في الشرق رسمية وشعبية ، وكانت شخصية أحمد باي شخصية بارزة في المقاومة ، " ولقد كان إقليم قسنطينة من أكبر وأغنى الأقاليم الجزائرية في العهد العثماني، فكان كثير السكان حتى قدرهم البعض بحوالي مليون ونصف مليون نسمة منهم حوالي ثمانين ألف في قسنطينة وحدها"[18].

يعتبر الشرق الجزائري من أقدم العصور مهد الثورات والمقاومات في الجزائر ، وغداة الاحتلال الفرنسي تصدى لكل الهجمات الساعية إلى الاستيطان " فمنذ اعتداء الاستعمار الصليبي على المسلمين في الجزائر بدء من سيدي فرج غرب الجزائر العاصمة ومواطني الشرق الجزائري يتوافدون فرادى وجماعات على إدارة الداي حسين في الجزائر طالبين الجهاد ضد الاستعمار الفرنسي الظالم، أكثر من عشرة آلاف متطوع ساندوا وانضموا إلى المقاومة في الجزائر من بينهم الرجال والنساء.

و لما تبين للداي عدم التمكن العسكري لإبراهيم آغا ، عجل برحيل العديد من القبائل المسلحة و حصنوا قسنطينة و الشرق ، و لم تعترف بالمعاهدة الموقعة مع الداي ، و اعتبروا أنه بسقوط الداي فإن الحكم سينتقل إلى الباي رمز السلطة المركزية للدولة العثمانية ، و رغم تأمين خروج الداي و حاشيته من الجزائر إلا أن مراسلات عديدة للباب العالي تبين عزم أحمد باي على مقاومة الفرنسيين ، و عدم الاستسلام لهم .

هناك العديد من الدراسات حول الحاج أحمد باي ، وحتى لا نسقط في دراسة الشخصيات ، نحاول أن نبين مقاومة الجزائريين لسياسة الفرنسة بصفة عامة من خلال هذه الشخصيات ، فحياة الحاج أحمد باي جديرة بالاهتمام ، فقد تثقف بثقافة عصره ، فأخذ من العربية الأدب واللسان ، ومن التركية الحكم والسلطان، وتربى مع الأسر الجزائرية ، واندمج في حياة المدينة والريف ، ويذكر الدكتور سعد الله أنه من القلائل الذين أدوا فريضة الحج في العهد العثماني ، فقد بقي أكثر من عام في المشرق ، جال وتعرف ودرس وأقام علاقات ، واجتمع مع محمد علي والي مصر ، وعرف نهضة مصر على يديه ، وهذا الرصيد من المعرفة جعله يختلف عن البايات الآخرين أثناء الاحتلال [19].

2-2 . شخصية الحاج أحمد باي و العروبة :

الحاج أحمد باي هو حفيد الباي أحمد القلي ، وابن الشريف محمد الذي شغل منصب الخليفة في الفترة التركية ، من أصل كرغلي (من أب تركي وأم جزائرية) ، ولد حوالي سنة 1776 م حسب مذكراته ، أما مرسيل إميريت EMERIT فيذكر أنه ولد حوالي 1750 ، وذكر أحمد فركوس أنه ولد حوالي سنة 1784م . وقد تربى عند أخواله بعدما أدركت أمه (الحاجة غنية) ابنة ابن قانة التي تنتمي إلى أكبر عائلات عرب الصحراء ، والتي شغلت وظيفة " شيخ العرب "

، أنه كان محيطا بأخطار تنم عن حقد دفين تجاهه ، بدأ الحاج أحمد يبرز كرجل لامع وكفء منذ سنة 1809م عندما وصل إلى رتبة " قائد العواسي " ، ثم تعيينه عام 1818 خليفة للباي ، ثم تولى بايلك قسنطينة وذلك سنة 1826 .

لقد تربى الحاج أحمد باي وسط القبائل في الصحراء ، " وقد كان رجلا حيويا ونشيطا لكن يبدو أن حياته الطفولية الصعبة ، والمحفوفة بالمخاطر لم يحظ فيها بمتابعة تعليمه ، غير أن حبه للدين الإسلامي يعكس لنا تأثره العميق بهذا الدين الحنيف في كتاباته ، فقد عثرنا على قصيدتين [20] دينيتين منسوبتين إليه ، نستشف منهما إيمان الباي بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، كما أن أداءه لفريضة الحج وعلاقاته بالمشرق ، ومكوثه بمصر مدة طويلة قد أكسبته الكثير من المعارف والتجارب"[21] .

إننا نجد في شخصية أحمد باي حبا كبيرا لهذا الوطن طيلة مرحلة مقاومة الفرنسيين " فبحكم تربيته العربية الأصيلة ، وانتمائه إلى أسرة أمه ذات الأصول العربية ، وكذلك بحكم ثقافته العربية الإسلامية فهو مسلم عربي جزائري قسنطيني ، وليس شيء آخر " ، لقد أكسبته البيئة الصحراوية عند أخواله صفات متميزة كالرجولة والمروءة والشهامة والشجاعة لذلك كانت له شخصية قوية الشكيمة .

" كان الحاج أحمد باي حاكما كفء ، عرف بالشجاعة والإقدام والجرأة ، وتميز بثقافة عملية مناسبة لمكانته ومهامه ، فهو قد جمع بين " فنون العرب وسلوك الترك " [22] ، وهذا واضح من خلال نشأته في صحراء الجزائر عند أخواله ، ولذلك " كان حلقة وصل بين نظام الدايات القائم على تكاثف الأقلية التركية ، والمعتمد على القوة العسكرية ، وبين واقع المجتمع الجزائري الذي تتحكم فيه

العادات العربية ، وتستبد به التقاليد القبلية، وتسود فيه الروح العشائرية في الريف ، وسلوك الطوائف المتنافسة في المدن " [23] .

3-2 . قسنطينة تحت حكم أحمد باي :

حتى لا أخرج على الموضوع ، و في الوقت نفسه حتى لا يتهم هذا بالتقصير ، يمكن القول أن بايلك الشرق الجزائري في عهد هذا الباي قد عرف الاستقرار والهدوء ، نسبيا ، و ذلك بالقياس إلى العهود السابقة إذ استطاع الباي أن يؤكد جدارته بالداخل و الخارج ، وظلت الرعية في ظل حكومته تتمتع بالعيش الكريم وتشعر بالراحة و الاطمئنان[24] ، و لا يعني ذلك أن حكمه كان راشدا ، فقد شهد بعض الصراعات الدموية بين العائلات الكبرى كما هو الشأن بين عائلة بن قانة و أولاد بوعكاز و أولاد مقران و ابن عاشور و غيرهم، " و لكن مهما يكن من أمر فإن السياسة التي انتهجها الحاج أحمد باي تجاه العائلات الكبرى قد هيأت له الظروف الملائمة لتوطيد ركائز حكمه "[25] و لا ننسى أن بايلك الشرق كان يشمل إقليم قسنطينة و قبائل زواوة و جبال البابور و فرجيوة إلى غاية الصحراء .

4-2 . كتابات أحمد باي ورسائلة مظهر من مظاهر الدفاع عن الدين الإسلامي و اللغة العربية :

لقد كان الحاج أحمد باي جزائريا خالصا محافظا على عروبته ، وقد تبين ذلك من خلال رسائله التي كان يبعث بها ، فهو أيضا قد حافظ على العربية كونها لغة البلاد منذ البداية ، وقد أشرت سابقا إلى القصيدتين اللتين تبينان مكانته الأدبية على الرغم من كونه بعيدا عن الشعر، إلا أن هذه الوثائق (القصيدتين) تبين مدى محبته للعربية والعرب ،يقول الدكتور صالح فركوس بعد أن أورد في ملحق كتابه صورة لمخطوطة القصيدتين[26] " يتبين من خلال هاتين

القصيدتين الدينيتين المنسوبتين للحاج أحمد باي أنه لم يكن شاعرا أو كاتبا ، و إنما جاءتا تعبيرا عما يختلج في صدره ، و ما يشعر به من إيمان و تقوى واستسلام و انكسار لإرادة المولى عز وجل ، إذ يبدو أنه كتبهما في أخريات حياته . هذا ويلاحظ أن الوثيقتين قد بدأ يصيبهما التلف ، مما تعذر علينا قراءة ما كتب بدقة "[27].و ما يهمنا في هذا المقام هو مدى تغلغل العربية في مشاعر أحمد باي ، مما أكسبته عفوية تامة في الكتابة.

2-5 .طريقة كتابته الرسائل مظهر من مظاهر مقاومة سياسة الفرنسة :

ويمكن أن نمثل لما سبق برسالة تعيين في منصب القضاء حيث بعث بها إلى الفقيه علي الزغداني ، الذي أولاه منصب القضاء بنجع الحراكتة يقول له فيها بعد الحمد و السلام:" .. سي الفقيه الأجل ابتنا السيد علي الزغداني ، على أنا أنعمنا عليه و وليناه قاضيا بنجع لحراكتة أولاد عيسى ، و أوصيناه بأن يحكم بمشهور مذهب الإمام مالك بن أنس الذي به الفتوى ، و أوصيناه بتقوى الله العظيم ، و طاعته في السر و العلانية ومراقبة من لا تخفاه خافية .. " و هذا النص ، يبين اهتمام الباي بالقضاء و جعله مستقلا ، كما أنه يبين احترام الشخصية الجزائرية التي تتبع مذهب الإمام مالك في الفقه و الفتوى ، على الرغم من أن العثمانيين كانوا على المذهب الحنفي ، كما يظهر أيضا اهتمامه بالكتاب و السنة ، و اهتمامه بالوصايا لعماله و حثهم على التقوى في السر والعلن .

2-6 . مجابهته للأتراك و الكراغلة و تقديمه لأخواله : لقد جابه أحمد باي في كثير من الأحيان الأتراك الذين أرادوا أن يتآمروا عليه " فقد تمكن الحاج أحمد باي بفضل حنكته وتمرسه على الحكم من مواجهة تآمر العناصر التركية بقسنطينة فاستعان في ذلك بالقوى المحلية بزعامة شيخ الإسلام محمد بن

الفقون مما أحبط حركة الأتراك والكراغلة المعارضين له بزعامة حمود بن شاكر "[28] ، و هو هنا يبين مناصرته لأخواله على حساب أعمامه .. و كأنه أدرك أن الجزائريين هم من يستطيع الدفاع عن الجزائر حقا بحكم الانتماء الحقيقي لهذه الأرض في حين يمكن للأتراك و الكراغلة أن يتخلوا عنها كما فعل الداي .

و الخلاصة : أن هذه المداخلة إشارة فقط إلى البدايات الأولى للمقاومة الأدبية والفكرية ، فالجزائريون مذ وطئت أقدام الفرنسيين هذه الديار وهم يجابهون قواتها و يتصدون لسياساتها التي أرادت أن تمحو اللغة العربية من الوجود الجزائري . لقد بينت المداخلة أن الجزائريين في الوسط ممثلة في حمدان خوجة و بوضربة (التيار العربي) قاوموا سياسة الفرنسة بعدة طرق ، و بالمقابل و بعد استسلام الداي حسين نجد الأتراك أيضا ببايلك الشرق ممثلة بأحمد باي قاومت هي الأخرى سياسة الفرنسة .

إن هذه المداخلة هي نافذة لطلبتنا من أجل إعادة فتح ملفات تاريخهم من الناحية الفكرية و الأدبية .

الهوامش:

[1] . عمر سعد الله ، القانون الدولي الإنساني والاحتلال الفرنسي للجزائر ، عمر سعد الله ، (الجزائر : دار هومة ، 2007) .ص : 34 .

[2] جاء في الاتفاقية :

1 . احترام الدين الإسلامي ومؤسساته وأوقافه ، وإنشاء لجنة من المسلمين لإدارة شؤونه .

2 . إعادة الأملاك الخاصة التي استولى عليها الجيش الأجنبي ، ودفع الكراء وتعويض أصحابها .

3 . تسيير شؤون المدينة من قبل الحضر ، وتقديمهم على غيرهم باعتبارهم القوة الكاثرة والأصلية والغنية .

4 . تخفيض نشاط اليهود في الجزائر وطرد الأتراك الباقين منها .

5 . فتح مجالات العمل والتعلم والصحافة أمام الجزائريين (فتح المدارس بالعربية وإنشاء جريدة) ... إلخ

فالملاحظ أن احترام اللغة العربية وارد في هذه الاتفاقية ، لكن أول شيء داست عليه فرنسا هو هذه المعاهدة .

[3] .أبو القاسم سعد الله ، الحركة الوطنية ، ج : 1 ، ص : 106 . 107 .

[4] .أبو القاسم سعد الله ، الحركة الوطنية ، ص : 184 .

[5] .سعد الله ، الحركة الوطنية ، ج : 1 ، ص : 184 ، و هذا واضح من خلال نص المنشور الذي وزع على الجزائريين غداة الاحتلال .

[6] .م . ن ، ص : 184 .

[7] .م . ن ، ص : 184 .

[8] .عبد الرحمان الجيلالي ، تاريخ الجزائر العام ، الجزائر : دار الأمة ، ط 8 ، 2007ج : 4 ، ص : 230 .

[9] .م . ن ، ج : 4 ، ص : 230 .

[10] ولد حمدان خوجة في الجزائر من أسرة ذات أملاك في منطقة متيجة ، درس على أبيه ، كما قام برحلات إلى اسطمبول و غيرها في الشرق العربي ، مثلما قضى نحو سبع عشرة سنة في أوروبا خاصة في فرنسا ، " وقد هيأته هذه التجربة لدوره السياسي حين اجتاحت جحافل الاحتلال الفرنسي الجزائر ، فانطلق يطالب النظام الفرنسيب باحترام المواثيق و العهود التي أعطوها في الاتفاق الذي استسلم بمقتضاه داي الجزائر في 1830م . ثم دخل مع غيره في مواجهة فكرية مع الاحتلال الفرنسيب ، انتهت بطرده من الجزائر إلى باريس حيث تابع نضاله السياسي و الفكري في المنفى ، و انتهى به الأمر إلى اليأس من كبح جماح الأعداء ، الذي ساعدهم ضعف الرد الوطني ففشلت لغة السياسة و الفكر في مواجهة الآلة العسكرية الصليبية الاستعمارية ، فانتقل إلى الآستانة حيث رحب به السلطان العثماني محمود الثاني وبقي هناك حتى أدركته الوفاة في إسطمبول سنة 1840. ينظر : عمر بن قينة . في الأدب الجزائري الحديث : تاريخا و أنواعا وقضايا و أعلاما ، الجزائر ، د.م.ج، ط" 2 ، 2009

[11] .ينظر نص الرسالة في : عبد الرحمان الجيلالي ، تاريخ الجزائر العام ، ج : 4 ، ص : 232 .

[12] .م . ن ، ص : 231 .

[13] عمر بن قينة . في الأدب الجزائري الحديث : تاريخا و أنواعا وقضايا و أعلاما ، الجزائر ، د.م.ج، ط" 2 ، 2009 ، ص : 17 .

[14] المرجع نفسه .

[15] المرجع نفسه .ص : 18

[16] .إبراهيم مياسي ، مقاربات في تاريخ الجزائر 1830 . 1962 ، الجزائر : دار هومة ، 2007م ، ص : 11 .

[17] المرجع نفسه .

[18] .سعد الله ، الحركة الوطنية الجزائرية ، ج : 1 ، ص : 138 ، وعن تقديرات سكان إقليم قسنطينة ينظر : (إقليم قسنطينة في عهد الحاج أحمد باي) ، ص : 55 . 59 .

[19] .سعد الله ، المرجع السابق ، ج : 1 ، ص : 139 .

[20] . ينظر هاتين القصيدتين في : صالح فركوس ، الحاج أحمد باي قسنطينة (1826 . 1850) (الجزائر : ديوان المطبوعات الجامعية، 1993م) الملحق رقم : 1 . وهذا يبين أنه محب للعربية ، وهذا مظهر أساسي في الدفاع عن اللغة العربية ، ومجابهة سياسة الفرنسة .

[21] .المرجع نفسه ، ص : 20 .

[22] .ناصر الدين سعيدوني ، الجزائر منطلقات وآفاق ، (الجزائر :عالم المعرفة ، ط2 ، 2009 م). ص : 62

[23] .م . ن

[24] صالح فركوس ، ص 103

[25] المرجع نفسه ، ص 57

[26] A.O.M. 1E 7 X 7 . نقلا عن صالح فركوس ، ص 107 .

[27] المرجع نفسه ، ص 107

[28] .ناصر الدين سعيدوني ، الجزائر منطلقات وآفاق ، ص 63